◆ وضعية المدينة وتطورها في شمال إفريقيا خلال الألف الأول قبل الميلاد

د. محمد خير أورفه لي

La ville en Afrique du Nord pendant la 1er millénaire av. J.-C.

Dr. M.K ORFALI

Jusqu'à la fin du 2ème millénaire av. J.-C., l'Afrique du Nord est restée attirée par un type de vie en unités villageoises qui remontent, sans doute à l'age de la pierre polie.

Avec l'arrivée des commerçants phéniciens, un nombre important de comptoirs commerciaux a été fondé sur la côte, dont la plupart allaient se développer et devenir des cités entre le VIII et le Vème siècle av. J.-C.

Pour les villes de l'intérieur, il n'existe pas aujourd'hui de vestiges antérieurs au Vème siècle av. J.-C.

Enfin, en ce qui concerne la formation de la ville en Afrique du Nord, à l'exception de Carthage et Kerkouane, les sources archéologiques n'ont pas permi jusqu'à maintenant une perception claire de sa composition et de son urbanisme.

بدأت بلدان شمال افريقيا خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق.م تدخل في مرحلة فجر التاريخ، وكانت متأثرة بحضاراتها الحجرية. وما يميّز البقايا العمرانية لهاته الفترة هو عدد هام من المعالم الجنائزية من مصاطب الدولمن أو التّلات والتي فيها نوع البازينات التي هي أكثر تطورا. ومعظمها يأخذ الطابع الحجري الميغاليتي. وما يميز هاته الفترة هي العزلة التي كانت تعيشها المنطقة. فالاتصالات والاحتكاك كان قليلا مع البلدان الأخرى وخاصة مع بلدان الحوض الشرقي للمتوسط الذي شهد تطورا كبيرا في حضاراته منذ الألف الرابع ق.م. خلال هاته الفترة لا نجد شيئا ملموسا عن تواجد المدينة في بلدان شمال إفريقيا حتى وفي كل الحوض الغربي للمتوسط. فلا المصادر الكتابية ولا الأثرية تشير إلى شيء من ذلك.

خلال القرن 12 ق. نسمع عن وصول السفن الفينيقية إلى الحوض الغربي من المتوسط وإقامتهم لمواصلات بحرية كان الهدف منها التجارة وخاصة مع منطقة تارشيش في جنوب إسبانيا حيث كانت المنطقة غنية بمعادن القصدير والنحاس والفضة التي كانت مطلوبة بشكل كبير في بلدان العالم القديم من الشرق الأوسط.

يشير لنا عدد من الكتاب القدامى عن تأسيسهم لعدد من المدن كان أقدمها مدينة ليكسوس بتاريخ 1111 ق.م. وهي نفس السنة التي أسسوا فيها مدينة قادس في إسبانيا عند مضيق جبل طارق(1). وكانت تدول حول هاته المدن الكثير من الأساطير الخيالية ففي ليكسوس (العرائش) مثلا يذكر لنا بلينوس الأكبر بأن فيها قصر العملاق الأسطوري المدعو «أنتي Antée» حيث دارت معركته الشهيرة مع هرقل كما توجد فيها -حسب الأسطورة دائما- جنة الحوريات اللاتي يدعين لدى الإغريق بالهسبريات اللاتي لديهن التفاح الذهبي(2). ويذكر لنا بلينوس الأكبر بأن تأسيس مدينة أوتيكا (باش شاطر) في تونس عام 1101 ق.م(3). وبعدها تأسس عدد من المحطات التجارية التي تحولت بعد ذلك إلى مستوطنات مثل هادرومت (سوسة) ولبتس (لبدة) وهيبون (عنابة) وهيبوديارهيتوس (بنزرت). وكانت كارت حدشت (قرطاجة) تاج هاته المدن التي كان تأسيسها عام 814 ق.م. حيث تدور الأساطير أيضا حول إنشائها. إذ تشير إلى قيامها على يد امرأة تدعوها بعض الأساطير «عليسا» والأخرى «ديدون» والتي هربت من أخيها الذي قتل زوجها واغتصب الملك في مدينة صور(4).

أما بالنسبة لهاته المستوطنات الفينيقية في المغرب فتعتبر الفترة السابقة للقرن 8 ق.م. هي فترة غموض تام بسبب قلة معلوماتنا عنها. فالمصادر الأثرية لم تمدّنا بأي شاهد سابق للقرن 8 ق.م. فهل كانت عبارة عن محطات مؤقتة مبنية بمواد خفيفة، مما جعلها تزول ولم تترك آثارا؟ إنها تبقى تساؤلات يصعب الإجابة عليها.

إن استمرارية هاته العلاقات التجارية للفينيقيين والبونيين من بعدهم وخاصة في جنوبي إسبانيا أدت إلى تواجد مواصلات بحرية مستمرة ومنتظمة. ثم إن طبيعة الملاحة البحرية خلال هاته الفترة التي تتمثل في الإبحار نهارا فقط وعدم الابتعاد كثيرا عن الشاطئ، أدت إلى احتياجهم إلى عدد من المحطات يرسون ويباتون فيها بعد مسيرة نهارهم. هاته المسيرة البحرية اليومية كانت تتراوح ما بين 30-45 كلم. مما أدى إلى تواجد عدد هام من المحطات التجارية على ساحل شمال إفريقيا تبعد فيها الواحدة عن الأخرى بهذه المسافة(5). وتؤمن ملجأ لسفنهم بواسطة خليج عميق محمي برأس بحري أو أحيانا على مصب نهر صالح للملاحة. ولهذا لو تفحصنا هاته المحطات لوجدنا أن هاته المسافة محترمة إلى حد كبير (أنظر الخريطة في الشكل 1). ويلاحظ من تحليل

الأسماء لهاته المحطات بأن الكثير منها يبدأ بمقطع (روس) وتعني بالفينيقية الرأس مثل: روسبينا (موناستير)، روسيكاد (سكيكدة)، روسازوس (أزفون)، روسو كورو (دلس)، روسغونيا (تمانفوست) وروسادير (مليلة). ومنها ما يبدأ بالمقطع (اي) وتعني الجزيرة الشاطئية مثل إيجلجيلي (جيجل)، إيكوزيوم (الجزائر)، إيول (شرشال). وعلى كل حال لا يأتي القرن 6 ق.م. إلا ونرى الساحل مرصعا بهاته المحطات والتي سيتطور معظمها إلى مدن حقيقية. وأصبحت قرطاجة خلال هاته الفترة أقوى المدن (أنظر الخريطة).

أما بالنسبة للشواهد الأثرية التي وجدت في هذه المدن حتى الآن، فلم تعط الأقدمية المروية عن المصادر الكتابية. فبالنسبة لأوتيكا فإن أقدم قبورها لم يتعدّ القرن 8 ق.م(6). بينما قرطاجة فقد أعطت الحفريات الأثرية الأخيرة فيها مستويات من القرن 8 ق.م. وهذا ما يتوافق إلى حد كبير مع الروايات التاريخية حول تأسيسها(7). أما ليكسوس فلم تمدنا معطياتها الأثرية حتى الآن بشواهد سابقة للقرن 7 ق.م. هناك مرسى المدّاح يصل تاريخ تأسيسه إلى ما قبل القرن 6 ق.م(9). وإيول (شرشال) كذلك وصلت شواهدها إلى القرن 6 ق.م(10). أما تيبازة فأقدم قبورها تؤرخ إلى نهاية القرن 6 ق.م(11). بينما قونوقو (قورايا)(1) وراشقون(13) ولبتيس فشواهدها لم تتعدّ القرن 5 ق.م(14).

أما عن أصول هاته المدن جميعا فمن الصعب البحث في أصولها هل هي فينيقية أم بونية أم ليبية أم هي مختلطة. فلا يوجد لدينا المعطيات الكافية للحكم على ذلك. فالاسم لا يكفي للحكم على طبيعة سكان المستوطن. ثم إن العدد السكاني للتجار الفينيقيين لا يستطيع تغطية هاته المستوطنات، ولا ننسى كذلك أن التجارة تتطلب التعامل السلمي ومعناه الاختلاط السكاني. على كل فإن المعلومات قليلة حول هاته الجوانب.

تبدأ الروايات التاريخية ذكر ممالك ومدن نوميدية في المنطقة خلال القرن 4 ق.م. وخاصة خلال الحروب البونية حيث يلعب الملوك النوميديون دورا هاما فيها. فنسمع عن مدينة سيقا كعاصمة للدولة النوميدية الماصيسيلية والتي كان ملكها صيفاكس، ومدينة قيرطا (قسنطينة) كعاصمة للدولة الماصيلية والتي كان ملكها ماسينيسا (أنظر الخريطة).

أما بالنسبة لبقاياها الأثرية فلا يوجد لدينا المعلومات الكثيرة حولها حتى الآن، وإن كان بعض آثارها يصعد حتى القرن 4 ق.م. ففي قيرطا مثلا يوجد معبد الحفرة المكرس لآلهة الخصب بعل حمون وتانيت والتي تصل أقدم آثاره من الأنصاب النذرية إلى القرن 3 ق.م(15). وكذلك لا ننسى الضريح الملكي المدعو بالمدغاس الذي هو معلم معماري

مدني متطور في بنائه رغم بعده عن العاصمة قيرطا والذي يرجعه بعض الباحثين إلى بداية القرن 4 ق.م(16).

كما أن الشواهد دلتنا على تواجد عدد هام من المدن النوميدية أيضا التي يصل تاريخ آثارها إلى ما بين القرنين 3-2 ق.م. مثل الدقة Thugga(17) وتفست Theveste (تبسة)(18) وتوبورسيكو نوميداروم Thubursicu Numida rum (خميسة)(19) ومادوروس Madauros (مداوروش)(20) وكلاما Calama (قالمة)(21) وتباربوسيس Thabarbusis (عين النشمة)(22) (أنظر الخريطة).

مكوّنات المدينة وتخطيطها

بالنسبة لتكوين المدينة وتوزع معالمها لا يوجد لدينا حتى الآن الكثير من نماذج المدن التي توضح لنا ذلك. فباستثناء مدينتي قرطاجة وكيركوان لا نجد مدينة تعطي تصورا لطبيعة تكوينها ونظامها ومخططها وتوزع معالمها وعدد سكانها فكل ما كشف عنه حتى الآن هو بعض العناصر والبقايا الأثرية فقط. أما قرطاجة وكيركوان فالحفريات الأخيرة أوضحت الكثير من مميزات المدينة وتكوينها وتوزع معالمها.

فبالنسبة لقرطاجة، فقد حدثنا المؤرخون القدامى أمثال بوليبيوس(23) وأبيانوس(24) وديودور الصقلي(25) عن هاته المدينة وقوتها وعظمتها وجمالها. وخاصة قبل تهديمها في منتصف القرن 2 ق.م. عن هاته الأسوار العظيمة الثلاثية الجدران وما تحتويه من معسكرات ومخازن للجند وإسطبلات للفيلة والخيل. عن موانئها الجميلة التجارية والحربية وأشكال أحواضها وخاصة الميناء الحربي ومبنى الأميرالية ذي المبنى العالي حيث تستطيع القيادة البحرية مراقبة كل ما يجري وراء أسوار المدينة في عرض البحر وعن عدد السفن الذي يستطيع احتواءه والأعمدة التي تزينه. وكذلك المنازل العالية للمدينة التي فيها خمس وست طوابق. والطرق المتعرجة التي جرت فيها المعارك مع الرومان.

أما الحفريات فقد أكدت جانبا هاما من المعلومات حول هاته المدينة فبقايا أحواض الموانئ مازالت موجودة إلا أنها صغيرة إذا ما قارناها بتلك الأوصاف القديمة، بينما منازلها فقد أعطت مستوياتها الأثرية نماذج هامة من المنازل من القرن 8 ق.م. حتى القرن 2 ق.م(26). وهي تزودنا بمعلومات هامة حول طبيعة المنزل وتطوره في المنطقة خلال هاته الحقبة من الزمن.

بينما مدينة كيركوان هاته المدينة التي هدمت من قبل الجيش الروماني خلال الحرب البونية الأولى ولم تسكن بعدها ثانية. فقد أعطتنا حفرياتها معلومات هامة جدا حول مظهرها ومخططها وتوزع معالمها(27). فالأجزاء التي كشف عنها حتى الآن ترينا بأن المدينة كانت محاطة بسور شبه دائري متكيف حسب امتداد المدينة (الشكل 2). شوارعها واسعة ومستقيمة في وسطها. أما الموجودة في أطراف المدينة فهي تدور في سورها. وفي المدينة عدد من الساحات فتكوينها يشبه إلى حد كبير تكوين المدن في الشرق القديم. وأجمل ما فيها هي هاته المنازل الكبيرة ذات الفناء الداخلي والحمامات والأرضيات المبلطة بالفسيفساء، والكثير منها مكوّن من أكثر من طابق واحد.

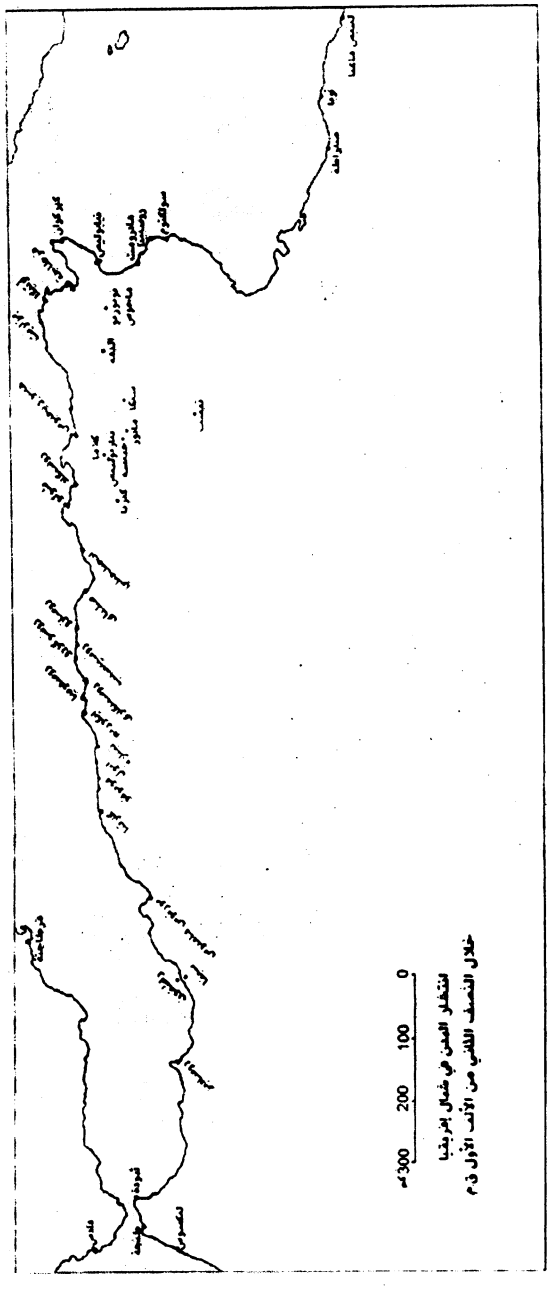

انتشار المدن في شمال افريقيا خلال النصف الثاني من الألف الأول ق.م.

الشكل 1

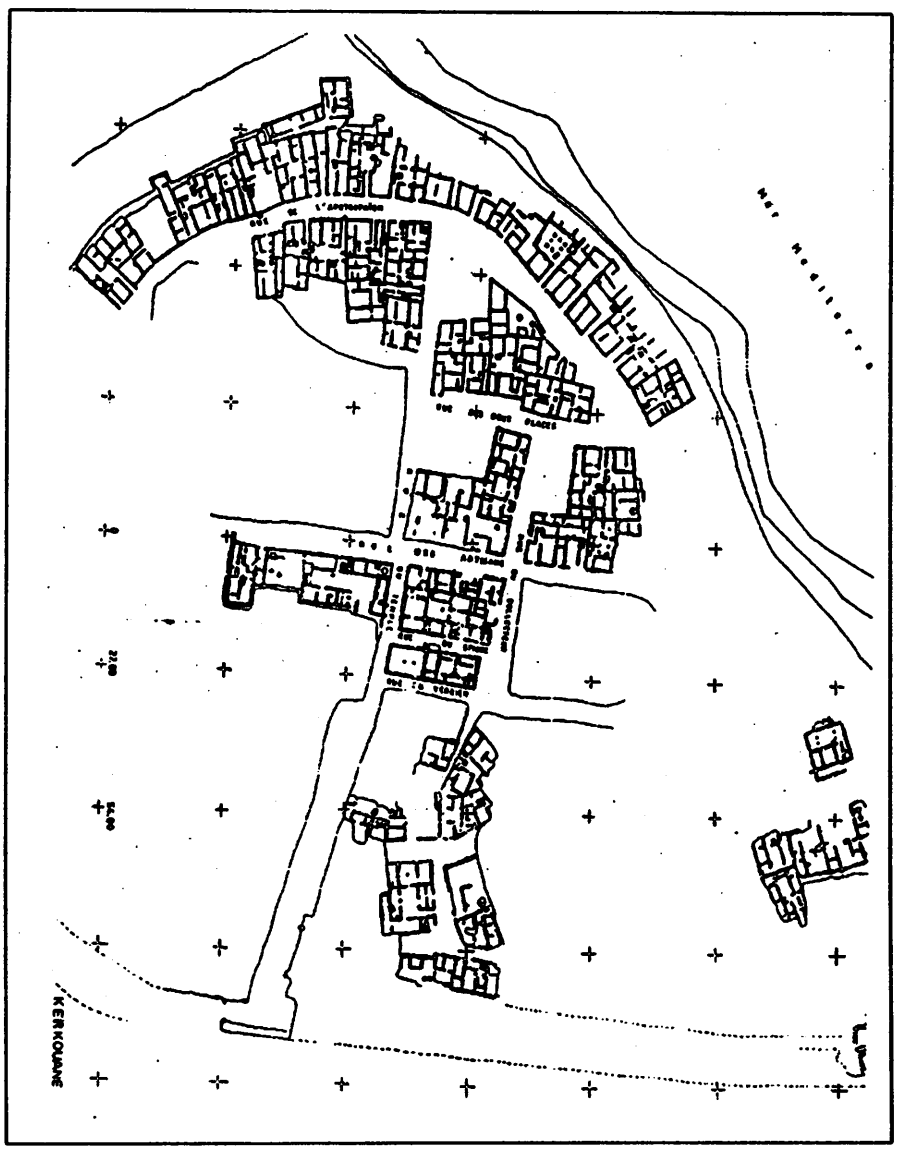

الشكل 2 كيركوان

عن: M. FANTAR, Kerkouane

الهوامش:

(1) – STRABON, 1, 3, 2; III, 2, 14.

(2) – PLINE, XIX, 63.

(3) – يروي لنا بلينوس الأكبر وجود عارضات من خشب الأرز النوميدي كانت قد وضعت في معبد أبولون في أوتيكا قبل 1078 سنة من عهده، ونحن نعلم أن بلينوس كان قد قدم كتابه التاريخ الطبيعي إلى تيتوس عام 77 م. معنى هذا أن أوتيكا كانت موجودة عام 1101 ق.م.

PLINE, XVI, 216.

(4) – مثلا عليسا أو (عليشات) حسب جستينوس Justin وفيليوس باتركولوس مثلا: JUSTIN, XVIII, 4, 6, Vellius PATERCULUS, I, p. 1-14.

تيمايوس يذكر لنا أنها كانت تدعى عليسا في وطنها الأم، وبعدها في وقت متأخر أصبحت تدعى ديدون من قبل السكان الأفارقة:

Fragmenta Historicorum Graecorum, éd. Th. Müller, Paris, 1874, t. I, p. 197, Timée, Fragment (23).

(5) – P. CINTAS, Fouilles puniques à Tipasa, Alger, 1949, p. 8-13.

(6) – P. CINTAS, Manuel d'archéologie punique, t. I., p. 259 sp.

(7) – F. RAKOB, Les fouilles allemandes de Carthage. L'état des niveaux puniques, Cahiers des études anciennes, t. XIX, 1986, p. 8, 17-18.

(8) – P. CINTAS, Manuel..t. I., pp. 246-248; M. TARRADELL, Lixuus, Instito Muley El-Hassan Tetouan, 1959, p. 30.

(9) – G. VUILLEMOT, Fouilles puniques à Marsa Madakh, Libyca (a/é) t.II, 1954, p. 339-342.

(10) – فقد وجد فيها تحت أرضية الساحة العامة للمدينة المتواجدة خلال العصر الروماني مصباح من الطراز البوني يرجع تاريخه إلى القرن 6 ق.م.، أنظر: N. BENSEDDIK, T. POTTER, Fouilles du forum de Cherchel 1977-1981, t. II, p. 372.

(11) – P. CINTAS, Fouilles puniques à Tipasa, p. 51.

(12) – حيث وجد فيها خزف إغريقي مستورد يؤرخ للقرن 5 ق.م. أنظر: F. VILLARD, Vases antiques du Ve s., av.J.-C. à Gouraya, Libyca (a/é), t. VII, 1959, p. 7-11.

(13) – F. VUILLEMOT, La nécropole punique du phare dans l'ile de Rachgoun (Oran), Libyca (a/é), t. III, 1955, p. 38-45

(14) – بالنسبة للبتس أنظر:

Th. H. CARTER, Western Phoenicians at Lepcis Magna, A.J.A., Apr, 1965, vol, 69 no 2, 131.

(15) – A. BERTHIER, A.R. CHARLIER, Le sanctuaire punique d'El-Hofra, Paris, 1955, p. 131-133.

(16) – G. CAMPS, Aux origines de la Berberie, Monuments et rites funéraires protohistoriques, Paris, 1961, pp. 194-201; Id. Nouvelles observations sur l'architecture et

l'âge du Medrecen, mausolée royale du Numidie, C.R.A.L., 1975, pp. 194-201.

(17) – وقد جد فيها عدد من المعالم أهمها معبد بعد حمون والمعبد المكرس لماسينيسا والضريح الملكي النوميدي الذي يؤرخ لما بين أواخر القرن 3 وأوائل 2 ق.م.: C. POINSSOT, Les ruines de Dougga, Tunis, 1983 p. 9, 21.

هذا بالإضافة إلى مجموعة من الأنصاب النذرية البونية التي وجدت في معبد بعل حمون والتي تعود لما بين القرن 2-1 ق.م:

C. PICARD, Catalogue du musée Alaoui, nouvelle série (collection punique), t. I, Tunis, sans date, pp. 258-261, no s Cb, 953-690.

(18) – هاته المدينة كانت متواجدة خلال الحرب البونية الأولى حيث يحتلها الجنرال القرطاجي حنون:

POLYBIUS, 173, DIODORE, XXIV; 10, 2, S. GSELL, Inscriptions latines de l'Algérie, I, pp. 286-287.

(19) – S. GSELL, Atlas archéologique de l'Algérie, feuille 18 (Souk Ahras), no 297; S. DE ROCH, Tebessa, antique Theveste, Alger, 195, pp. 10-11.

(20) – هاته المدينة كانت متواجدة –حسب أبوليوس المادوري– منذ نهاية القرن 3 ق.م، كما ذكر تبعيتها للملك صيفاكس.

APULEE, Apologie, 24;

أنظر أيضا:

S. GSELL, Atlas... Feuille 18 (Souk Ahras), no 432.

(21) – وقد أمدتنا بمجموعة هامة من الأنصاب البونية المتأخرة والتي يمكن أن تؤرخ لما بين أواخر القرن 3 • ق.م و2 ق.م. والتي تدل على وجود معبد للإله بعل حمون:

A. RAVOISIE, Exploration scientifique de l'Algérie, Beaux-Arts, II, p. 21, Ad. BELAMARE, Exploration scientifique de l'Algérie, Archéologie, Paris, 185, pl, 178, fig. 7-11, 18, 19; 184, 4-9; 187, 1-7; G. DOUBLET, P. GAUCKLER, Musée de Constantine, Paris, 1893, p. 25-26, p. I.III; S. GSELL, Atlas.. feuille 9 (Bône), no 146.

(22) – فقد أعطتنا المدينتان عددا من الأنصاب الجنائزية من الطراز البوني المتأخر أنظر:

J.B. CHABOT, Les inscriptions néopuniques de Guelma, Journal asiatique, t. VIII, 1916 (Punica) pp. 483-519.

(23) – تعتبر رواية بوليبيوس مرجعا هاما لكونها شاهد عيان عند تهديم المدينة وقد وصفها بشكل واف إلا أن معظمها ضاع، وعلى كل نجدها عند المؤرخين المتأخرين الذين نقلوا عنه وخاصة أبيانوس، أما ما تبقى فنجده خاصة في الجزء الرابع عشر: POLYBIUS, XIV, 10; 77.

(24) – في الجزء الثامن من التاريخ الروماني، وكانت أوصافه مفصلة لحد كبير.

(25) – وهي بعض الأوصاف الضئيلة أنظر: DIODORE, XX, 8, 9, 44.

(26) – الدراسات الأثرية حولها أصبحت وافية إلى حد كبير وخاصة الأخيرة منها والتي جرت خلال السبعينات والثمانينات، أنظر:

S.-E. TLATLI, La Carthage punique, Paris, 1978, E. RAKOB, op. cit, pp. 7-56.

(27) – وقد قام محمد فنتر بدراسة هاته المدينة بشكل واف، أنظر كتابه:

M. FANTAR, Kerkouane, t. I., Tunis, 1984.